الشاعر: أحمد محمد درويش

حياته وصور من إبداعه الفني

بقلم الدكتور: محمد على سيد أحمد داور

بلى، ذى بده أحمد ربى سبحانه وتعالى صاحب المنة والإحسان ، فقد منّ علينا بنعم كثيرة أولها نعمة الإيجاد وأردفها بتوالى الإمداد ، ومن أسمى النعم التى أمد بها المرء بعد خلقه نعمة العقل التى بها هدى الإنسان إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وأصلى وأسلم على خير البشرية محمد ﷺ وبعـــد .

فقد خلق الله الإنسان فى هذه الحياة لعبادته ، وهذه العبادة تكمن فى أداء رسالات متعددة بمجموعها تتحقق له الاستقامة فى الحياة فتؤتى أكلها وتكثر ثمارها ، ومن أجل هذه الرسالات الدعوة إلى الله رب العالمين بعد السير على منهجه ، وبذل المرء ما يستطيع من الجهد فى البحث عما يفيد الإنسانية فى كل مجال من مجالات العلوم المختلفة ، والأدب أحد هذه العلوم ، وهذا الفن الإنسانى الجميل يستوجب ممن يبحثون فيه أن يفتشوا عن خفيه ويبحثوا عن مكنونه الجيد الذى حالت الظروف دون ظهوره أو نشره أو عملت على قتله حينا ، هذه المعوقات التى كثيراً ما قتلت صفحات ربما حققت لقارئها إفادة وإمتاعاً ، بل ربما كشفت عن مشكله خطيرة أو رأى مستنير ، أو ساعدت فى القضاء على بعض ما يقف فى طريق فئة معينة من معوقات ، وهذا ما يدخل فى الواجب الذى يقع على كواهل من يبحثون فى هذا الفن ، وفى تصورى إن كشف الفكر والفن والأدب أفضل بكثير من كشف الذهب والتنقيب عنه .

وينقسم الكشف عن خفى هذا الفن إلى أقسام ويتفرع إلى فروع : فمنه البحث عن الأدب فى عصوره السابقة أو فى عصوره الحاضرة ، وقد يتفرع ذلك إلى البحث فى الشعر أو النثر بألوانه المتعددة .

والموضوع الذى آثرت أن أقف معه فى هذا البحث : هو شاعر ذو موهبة شعرية فذة مكنته من الوقوف على تجاربه بمهارة عالية ورؤية نافذة وبصر بجوانب الأمور ، وقدرة على النفاذ فيها ، كما يملك زمام

الأداة الموحية ، ومع كل هذا فهو ذو قدرة على التعبير عن تجربته فى سهولة تمتنع على كثير من شعراء الجيل . وشاعر يطل على القارىء بهدوئه الظليل ويفرض علينا أحـــلام اليقظة التى تجيش فى أذهان الكثرة من ذوى الإحساس الرفيع والحس المرهف ، يعبر عن ذلك وغيره فى صور معبرة وفكر مستنير يشيعان فى القارىء عددا لايحص مما يعيش فى ذاته من فكر واحساس ، ولقد عالج الشاعر فى تجاربه الفنية مرضوعات شتى معالجة بديعة لم تر بهذا الأسلوب والشكل من قبل ، وهو بذلك شاعر له فكره ورأيه فى مجال الشعر وهى آراء ـ فى تصورى ـ يعتز بها مجال الدراسات الأدبية ومع هذه السمات الإبداعية للشاعر فلم يتوفر له من الأسباب مايحقق لشعره الذيوع والانتشار ، بل ظل شعره حبيس صدره وقرطاسه ، اللهم إلا بعض القصائد التى قيلت فى المهرجانات الشعرية أوفى كلية الآداب جامعة الاسكندرية أوفى مبنى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، ولقد كان فى مقدوره أن يرى النور ويسابق الكثرة مما نقرأه الآن ، ومن قبل من الشعر المعاصر لوأن الشاعر سلك مسلكاً آخر كهؤلاء الذين يتحذون من شعر المناسبات مطية للظهور ، فكم من فرصة واتته ولكنه رفض كل هذه السبل ، وكأن مثله فى ذلك مثل العربى الأدبى الذى يفد قدوة فى العزة والإباء والشمم ، يعيش وقوته الحياء والكبرياء ، وإننى إذ أقدم هذا الشاعر إلى أعزائى القراء والأدباء إنما أقدم صفحة مشرقة من تجاربة الشعرية التى تكشف عن مقدرته الفكرية والشعورية عل ذلك يساعد على نشر بعض أدبه حتى تنضم اللؤلؤه الكبيرة إلى مثيلاتها فى عقد الزمان الخالد ظل إشعاعه وسيظل إلى ماشاء الله ، وبذلك ومثله تظهر الصورة كاملة متكاملة معطاء ، وشاعر البحيرة لم تنشر له سوى قصيدة واحده فى كتاب مهرجان الشعر الخامس عام ١٩٦٣ م بالاسكندرية ، وهى من الشعر الوطنى أنشأها الشاعر عام ١٩٥٩ م وعنوانها « من أجل

شعب »(١) يقول فيها :

من أجل شعب مرهق بالذل والعسف الشديد
من أجل شعب عاش دهراً مستذلا كالعبيد
من أجل شعب دامى الاقدام من ثقل القيود
من أجل شعب هده الاقطاع فى أرض الجدود
... ...
من أجل هذا كله من أجل تحرير العبيد
دوّى بأرجاء الزمان فهز أعماق الوجود
صوت من الشرق الفتى يزفه فجر جديد
أنا قد صحوت ولن ترانى للكرى أبداً أعود
لا . لن أسلم مطلقا جفنى لأحضان الخمود

* * *

وقد آثرت أن أقدم للقارىء هـذا البحث فى جزئين — وآمل أن أوفق بعد فى عمل يكشف الشاعر ونتاجه ويقدمه لقراء الأدب وعشاقه ونقاده — أما الجزء الأول فهو حوار مع الشاعر يغطى كثيرا من جوانب حياته — بما يناسب المقام — تعريفا ورأيا ، بمعنى أنه حوار يكشف عن كثير من جوانبة الأدبيه وآرائه الفنيـــة ونظرته إلى الشعر كفن له دوره فى الحياة .

ويقدم الجزء الثانى عرضا مناسبا لبعض التجارب البديعة من شعر

---

(١) القصيدة من مجزوءة الكامل وعدد أبياتها ٥٥ بيتا وهى مخطوطه بخط الشاعر ومصوره لدى

الشاعر والكشف عما فيها من جوانب فنيه تنبىء عن قدرة إبداعية فى هذا المجال .

— ١ —

الأخ الأستاذ الشاعر أحمد محمد درويش . . . السلام عليكم ورحمه الله وبركاته .

وبعـــد :

أشرف بهذا اللقاء ، وأملى كبير فى أن يكون محققا لما آمله منه ، وإنه إذا كان من واجب الباحثين فى الأدب إظهـــار كنوزه ليطلع عليها القراء ، ويدرسها الباحثون ، ويتمع بها الذواقة ، من أجل ذلك يجدر بى أن ألتقى بك فى أكثر من لقاء ، فعهـــدى بك أنك تمتلك الفكر الفنى والشعور المرهف والرؤيا النافذه والأداة الطيعة ، ولا أطيل عليك فالكلام كثير لو تركنا لا نفسنا العنان ، واسمح لى أن نبدأ الحوار .

— ما هويتك الكامله ؟

الاسم : أحمد محمد درويش

المولد زمانا ومكانا : ولدت فى أواخر الثلاثينات فى لقانه إحدى قرى محافظة البحيره .

أما عن نشأتى : فقد تفتحت عيناى على هدوء الريف وصفائه وسحره وبهائه ، وعل الخضره الممتدة عبر الأفق والطبيعة الساحرة مما أثر فى منهجى الشعرى منذ النشأة فأجدنى أقول :

لله درك منبعَ الخيرات ياريف يامهدى ولحن حياتى
كم من الاشراق فيك وكيف لى
تصـــوير آى الله بالكلمات

ولقد تناولت الريف كثيرا فى شعرى .

أما عن الكلية : فقد تخرجت فى كلية اللغة العربية جامعة الأزهر الشريف عام ١٩٦١ م .

بعض الاعلام الذين تلقيت العلم على أيديهم ولهم عندك نصيب من الذكر حتى الآن .

من الأعلام الذين أعتز بهم والذين تلقيت العلم على أيديهم : الدكتور عبد الرحمن عثمان ، وكنت أحب فيه إنصافه لذوى المواهب الشابة المغمورين أمثال الشاعر البائس عبد الحميد الديب .

الأعمال التى قمت بها داخل الوطن وخارجه :

من الأعمال التى قمت بها داخل الوطن : القيام بأداء رسالة مقدسة ، رسالة التعليم ، واشتراكى فى مهرجانات شعرية كثيرة بين الاسكندرية والقاهرة ، ومنها مهرجان الشعر الخامس عام ١٩٦٣ بالاسكندرية .

أما خارج الوطن : فقد أعرت للتدريس بعدن . وهناك شاركت زملائى فى مقاومة التيارات غير الإسلامية التى كانت تهدد البلاد فى ذلك الحين .

الشعر فى رأيك :—

هو أرقى لغة وأسماها فى عالم التخاطب ، وهو المعراج الذى يسمو بالإنسان إلى العالم الجميل العامر بالإحساس والشعور والوجدان والحب والجمال .

الشاعر فى مفهومك ؟

الشاعر إنسان يعذب بإحساسه ، ويؤرق بخواطره وأفكاره ، المشارك فى آلام الانسان وآماله المترجم عن آمال أمته وأمانيها .

يقول بعض النقاد : إن الشعر هو ما أشعرك وجعلك تحس جوانب النفس الانسانية ... أللشاعر أحمد درويش إضافة على هذا المفهوم أوله رأى آخر من خلال تجربته الشعرية ؟ .

الشعر الصادق ما كان ترجمة لانفعالى صادق واحساس مرهف وعواطف نبيلة مما يجعل الشاعر يحيط بكل جوانب النفس الانسانية ويحس جميع ما يعتريها فى حالتى سعادتها وشقائها مشاركالها ومخففا عنها .

والشاعر يؤكد بذلك دور الشعر الاجتماعى فى معترك الحياة الأليم .

ما الدوافع الحقيقية لقول الشعر؟ وما مدى انطباق ذلك عليك فى قولك للشعر ؟ .

أرى الموهبة مضافا إليها توفر التجوبة الشعرية بما فيها من فكر ووجدان وصور تعبيرية مضافا إلى ما تقدم — أيضا — رهافة الحس، وهذه دوافع حقيقية لقول الشعر وذلك من خلال تجربتى معه ، ولقد كان يحلو لى ترديد هذه الأبيات :

وفى بحر دمعى سرى زورقى ... يجدف فى ظلمات الكدر

تهب عليه رياح الهموم ... وموج الردى صاخب مستعر

وضل فلم يدر أين يسير ... ولم يدر أين سيتهى السفر

وملاحه عبقرى الشقاء ... نديم الأسى نابغى السهر

هل يتذكر الشاعر : أحمد درويش أول قصيدة قالها ليحدثنا حول العوامل التى فجرتها ؟ .

أذكر أن أول قصيدة قلتها هى « دموع شاعر وكانت نتاج ظروف قاسية ملحة المت بى عام ١٩٥٤ م ، كما أذكر أننى ألقيت هذه القصيدة بكلية

الآداب جامعة الاسكندرية فى نفس العام ... وكثيرا ما كنت أردد أبياتها بينى وبين نفسى حيث وجدت بها سلواى .

يقولون إن لكل عاطفة وزن معين يؤديها ويتناسب معها(١) .

ولهذا يحسن الوزن فى غرض دون آخر كالوافر الذى يحسن فى الحماسة والفخر(٢) .

والخبب الذى يصلح للشعر فى حالات الانفعالات النفسية المصحوبة باضطراب من شأنه أن يكون وقت وقوع حادث أو ما شابه ذلك .... فما رأيك فى ذلك ؟ .

أؤيد هذا الرأى . . وأميل إليه .. فكلا الوزنين ملائم لموضوعه وألمح ذلك واضحا فى شعر القدامى والمحدثين .

ما رأى الشاعر أحمد درويش فى الشعر الحر ؟ .

للوزن الشعرى موسيقاه الجميلة ، وماذا على هؤلاء الشعراء لو وضعوا معانيهم وأخيلتهم فى قوالب موسيقية توفر للقارىء الامتاع بذلك الفن الجميل شكلا ومضموناً .

هل يمكن أن تذكر لنا المؤثرات الحياتية التى يمكن أنه نعممها على الشعراء فى كل زمان ؟ وما مدى انطباق ذلك عليك ؟ .

• البيئة وما تضم من عوامل ومظاهر ، والسياسة وما تعكسه من صور قد تثير غضاضة أو تبعث رضا .

---

(١) موسيقى الشعر د. إبراهيم أنيس ١٧٦ ، ١٧٧

(٢) السابق ١٧٨

* الحالة الاجتماعية وما يترتب عليها من حياة طيبة غذاؤها الإخلاص وشرابها الود والصفاء أو عكس ذلك .

* النشأة التى ينشأها الشاعر ، فالشاعر الذى يعيش فى ظلال الترف والنعيم يختلف عن ذاك الذى يعانى فقراً وبؤساً إلى غير ذلك من الوسط المؤثر ، ويظهر هذا بوضوح فى أشعار المعاصرين .

الشاعر أحمد درويش : شاركت فى مهرجانات شعرية حضرها معك أدباء كان من الممكن أن يكون لك ذكر مثلهم إن لم يفق إن أنت أذعت شعرك ، هؤلاء الأدباء لهم من الشهرة ما طبق الآفاق ، وقد اخترت بعض القصائد التى أذعتها للتدريس لما فيها من حس وطنى وقومى ، فهل يمكن أن تحدثنا عن ذلك .

صحيح أننى شاركت فى عدد كثير من المهرجانات الشعرية التى حضرها معى عدد كثير من الشعراء البعض ساعدته الظروف ، والبعض حالفه الحظ فكان لهم صيت ذائع وشهرة واسعة وكلا الأمرين لم يتوفر لى ، ولكن قنعت بإحساس شديد ينبؤنى بأنى أضم شاعراً بداخلى .

أشعارك كثيرة كما أسمع ، ولكنى لم أقف على عدد القصائد فهل لى أن أجد عندكم جواباً ؟ .

بعد استبعاد شعر المناسبات أرى أن مالدى من القصائد يربو على السبعين قصيدة ، ومعظمها من القصائد الطوال فى مختلف الأغراض .

حتى الآن — مع أن لك نتاجاً شعريا يشغل مساحة كبيرة ، كما يمتاز بمضامينه الفكرية والشعورية القيمة — لم يضم شعرك فى ديوان أو أكثر ويطبع حتى يحتل مكانه فى التراث وتكون الصورة للأدب المصرى متكاملة فى فكر كل أبناء الوطن ، هذا ونحن نقرأ فى المجلات والصحف

صوراً من ألمع فتاج الشعراء وفى شعرك ما هو أشرق وامتع ؟.

أرجو أن يتم ذلك قريباً .

ما مدى ظهور الحس الدينى والاجتماعى عند شاعر البحيرة ومصر الأستاذ أحمد درويش ؟.

لقد كان للحس الدينى والاجتماعى أثرهما الواضح فيما قلت من شعر ظهر ذالك فى عدد كثير من القصائد الدينية والاجتماعية ، ومنها على سبيل المثال قصيدة « يانور » فى ذكرى مولد الرسول ﷺ ، وفيها يقول(١).

يانور متدا قـــد يقول لسانى ... وضياك فتـــان السنا ربانى

يانـور والدنيا ظـلام حالك ... والشرك يحـدو دجوة البهتان

صحراء تضرب فى ضرير الليل ... لا تدرى سدى لنهاية الحيران

ضلت سفينتها بليـل آثم ... يا شوقها للنور والشطآن

ومن الشعر الاجتماعى قصيدة « هذا الذى سموه حبا » وفيها يقول(٢).

الليـل عطرى الهـوى نشوان أسكره الربيـع

وهناك . . . فى حضن الربيـع . . . فى ظل الخميلة

وبربوة سلك الغرام إلى مفاتنها سبيـله

حيث الهوى...والسحر...والآمال . والدنيا الجميلة

حب نما . . . وزها وأرخى فوق مغناها سدوله

والحب ما أسماه إن وثقته عرى الفضيله

والحب قدس طاهر إن لم تدنسة الرزيله

---

(١) القصيدة مخطوطة بخط الشاعر وعددها ثلاثة وستون بيتامن بحر الكامل

(٢) القصيده مصورة لدى وعدد أبياتها سبعون بيتا من مجزوء الكامل

— للشاعر دوره الاجتماعى فلو فقده قدراً كبيراً من قيمته إن لم يفقدها كلها . فما رأيك فى هذا القول ؟

— هذا صحيح ؛ فالشاعر الصادق جزء لايتجزأ من مجتمعه وقضايا ذلك المجتمع ، وبذلك لايكون الشاعر قد أدى رسالته وقام بدوره حتى يلتحم بتلك القضايا يؤدى فيها رسالته ويقوم بدوره .

— هل للشاعر أحمد درويش رؤيا محددة فى أسباب كساد الجانب الأدبى إن وافقتنى على هذا التعبير ؟

— من أسباب كساد الجانب الأدبى : عدم التشجيع من جانب وسائل الإعلام التى لاتجعل للجانب الأدبى نصيباً من جانب ، وعدم وجود المجلات الأدبية الخالصة كمجلة الأدب التى كان يرأس تحريرها الأستاذ أمين الخولى ، ومجلة الآداب التى كان يديرها الدكتور « سهيل إدريس » ، ومجلة الرسالة التى كانت تتناول القضايا الأدبية لصاحبها الأديب أحمد حسن الزيات .

— ما الذى يمكن عمله فى تصور الشاعر أحمد درويش أو القيام به حتى تبث فى الأدب دماء الحياة قويه كما كانت وخاصة بعد إنشاء كلية اللغة العربية بدمنهور ؟

— عليها أن تقيم الندوات الشعرية والمجالس الأدبية التى تبحث فيها قضايا الأدب والشعر ، وأن تقدم الحوافز لطلابها الموهوبين ، وإصدار مجلة باسم الكلية تضم نتائج هؤلاء الموهوبين والدارسين والباحثين حفاظاً على التراث الأدبى .

— ٢ —

وللشاعر أحمد محمد درويش رؤيا فريدة فى معالجة موضوعات تجاربه

الشعرية ، فهو يقدمها فى إطار فكرى ينم عن المقدرة والقوة ، ويواكب فكره بشعور فياض ، ويفرزها إفرازاً يلبسها ثوباً جديداً ، وفى صبغة حوارية تحمل فى ثناياها الصور الموحية التى تقدم إليك الموضوع فى إشراقه وسهولة ، ويكلل ذلك بالصدق مع الذات وبذلك يستطيع امتلاك الإنسياب والنفاذ إلى أعماق المرء ، وإليك عزيزى القارىء بعضاً من تجاربه لتكشف لك عن شىء مما فيها من فن وإبداع ، فهو فى عيد الأم لايقدم للأم وصفاً يصف فيه عناءها وما تحملت من أجل أبنائها ، وإنما يبحث فى هدوء عن أخص خصائصها التى تميزت بها حتى أصبحت لصيقة باسمها ، وهو لايدخل على مراده مرة واحدة ، وإنما يحلق بنا فى آفاق اجتماعية ليعالج خلال رحلته قضايا اجتماعية تمس أمن الأسرة والمجتمع والإنسان ، وهو من خلال هذه المعالجة يوفر للأم التى أعطتنا كثيراً مايضمن لها حياة تنعم حتى بعض الراحة ، ويقدم الشاعر ذلك فى حوار جذاب تجمعه خطوط قصصية تنتمى إلى فكرة أساسية عضوية .

فالحنان ، هذا المعنى الإنسانى يجلس ذات أمسية فى عزلة يجتر آلامه ويرصد ما كان من غدر له فى سالف الدهر مرة ، وما هو ممتد فى كل زمن مرة أخرى ؛ وقد حرقت أحشاؤه وضاق ذرعاً بما كان وما يكون وظل معذباً ، ولنذهب إلى القصيدة لنرى كيف بدأ معه الشاعر حواره ، يقول(١) :

لمحت الحنان على رابية ... وحيداً بآلامه المضنية
تساءلت : ماللحنان المعنى ؟ ... وماذا به هذه الأمسية
فقال : ومالى لا أصطلى ... بجمر يحرق أحشائية

ويقرأ المرء ذات الشاعر أحمد درويش فى أشعاره وفى كل قصائده

---

(١) القصيدة تبلغ ٢٢ بيتا من بحر المتقارب .

فهو يعيش وزاده الحنان ، ولقد أحاطت به أثناء حياته التى كان يتلقى فيها العلم جيوش جرارة من الهموم والآلام ، فكان لايجد المنقـــذ منها أو المخفف عنه سوى هذا الحنان الذى يرشفه من دوحتى الأسرة ، يرتجيه لأوجاعه ، فهو قد عهده طباً لكل داء . يقول :

فقلت : وما شر ذاك العذاب وأنت المرجى لأوجاعيه
عهدتك طبا لكل النفوس تفوق لدينا أبا الأدوية

ولكن ! يعود الحنان فيعلن عن حيرته الكبرى وتشرده المرير ، فهو يفتش عن مسكن ويبحث جاهداً عن مأوى ، يراها الشاعر فى الكون كله كائنة ومن اليسير العثور عليها ، ويدور بينهما هذا الحوار الذى يبدؤه الحنان قائلا :

فقال أفتش عن مسكن ومهـــد تقربه عينيه
فقلت لك الكون ذا كله تخير أيا صاحبى ناحيه

هكذا فهم الشاعر بينما يعلن له الحنان عن كنه مسكنه ، فهو لايأوى لغير الأفئدة والقلوب ، إلا أن القلوب قد تعاورت عليها الأمراض ، ويظل الشاعر فى سيره يتنقد القلوب ليقدم لمحاوره منها أنماطا يسكنها ، غير أنه يكشف للشاعر انزوائه عنها تقرأ بعض ذلك فى قوله :

إلى قلب زوج على زوجها تريه الحنان ولو ثانية
فقال : سكنت به ساعة فضقت بها زوجة قاسية

ويفتح الشاعر صفحة ليسجل فيها نقده وما يلمسه فى الحياة الزوجية ، ويالها من قسوة تظهر عندما يخيب ظن الزوج فى زوجته ، تلك التى ظهرت بوجه ظن من خلاله إمكان مساعدتها له فى إقامة أسرة طيبة عمرها التاون ، كان ذاك من قبل ، ولكن هيهات مع الكثرة منهن .

ولاشك أن الرؤية والرؤيا كانا لهما تأثيرهما على الشاعر فى هذا الجانب، ويمقت الشاعر هذا الزواج الذى لا يقوم على علاقات طيبة تهدف إلى بناء صرح شامخ من الأسر التى تتمتع بالخلال الطيبة وتؤدى رسالتها على الوجه الأمثل، بل كل هدف المرأة منه النظر المركز والتمتع بالجوانب الحسية والمادية، ومن هنا يسرع فيعلل ضيقة بقلب الزوجة قائلا :

إذا أظهرتنى له إنمـا لعارض أمر وليس ليه

ولتسمح لى عزيزى القارىء أن أعلن لك عن قدرة الشاعر على التعبير الدقيق وتمكنه من أدوات فنه فى قوله .

... ... لعارض أمر وليس ليه

هذا التعبير الذى يذهب فيه المرء كل مذهب حتى يستوفى كل العوارض، كما أن فى التعبير ما يعكس تمجيد الشاعر للقيم، وذلك وتعمل من أجله الطباع السليمة، ويقنن له الفكر الإنسانى، ولا يعنى هذا عدم وجود القدوة فهى نادرة الوجود، وإلا فإن النساء المثليات الفضليات شهيرات شرفن صفحات التاريخ وأشرق بهن التاريخ .

وبعد أن يظهر بهذه الصورة حقوق الزوجة التى كان عليها أن تكون سكناً لزوجها ينتقل إلى الزوج ليلحى منه بعضا من الأعمال والمواقف التى تؤرق الحنان، وتجعله يلم نفسه وينتمى ناحية أخرى جزئياً كئيباً، يقدم لنا الشاعر هذه اللوحة الفكرية الشعورية التصورية فى قوله :

فقلت : تخـــير فؤاد أب عطوف يبـــدد آلاميه
على زوجة شاركته الحياة وقضت لياليها عانيـــة

ويعكس الشاعر ما استخلصه من واقع أسرته الهادئة المكافحة التى يمتد تعاون الأفراد فيها منذ أن كان أبوه حياً يظلل أولاده بوارف عطفه

وتمتد ظلال حنانه على كل أفراد أسرته بما فى ذلك زوجته التى هى أهل لهذا التمجيد والحنان حيث وقفت مع زوجها مشاركة فى بناء صرح قوى شامخ أسسه العزة والإباء والمداومة على العمل ، وثمارة العطاء المتجدد الذى يقدمه السابق منهم للاحق ، ولا يزال تعاونهم ممتدا حتى اليوم .

ولكنه بعد أن يسبح على سطح غديره إذ به يرسل الفكر إلى أعماق الآخرين فيجدها تتخبط فى ظلمات تؤرق بل تقتل كثرة من المجتمع ، ولهذا حل به الحنان وقتا ، وما أسرع تركه له ، ولكن لماذا ؟ تسمع الإجابة فى قوله :

فقال سكنت به ساعة نخلت الأمانى وآماليه
فما راعنى غير قلب خلا إذا ما تزوج من ثانيه

فلا يدوم حاله ولا يستقر وصاله ، بل ينقطع الوداد وتنامى ما كان بينهما من وصال .

ويلم الحنان حاله حزيناً مؤرقاً ليبحث له عن مأوى يجد فيه مبتغاه ، وتطالعا فى هذا المكان وغيره من القصيدة ثقافة الشاعر الإسلامية فى تجاربه الشعرية على نحو ما سنراها بعد فى حواره مع الحنان الذى هو عند الشاعر قارئا لسطور التاريخ الإسلامى ومطلعا على كثير من القصص الدينى فى القرآن الكريم ، ونقرأ له :

فقلت تخير فؤاد أخ يحن على إخوه مثليه

وتظهر عقيد الشاعر وإيمانه بأن الحنان الأخوى والعلاقات الأخوية جديره باصطحاب الحنان ليسكن هذه الأفئدة الجافية ، والشاعر قدوة فى ذلك ، غير أن مادعاه الشاعر بالحنان لا يطمئن إلى مكان فيه أدنى غضاضة ،

ويلوح التاريخ للحنان بتلك الصفحة القائمه ، والمذكورة فى سورة المائدة (١) ، يقول :

فقال لقصة قابيل عنف يمزق روحى وأحشائية

ويظل يبحث عن هدفه ويشتد ظمؤه وشوقه إلى تلك الغاية ويجوب من أجلها السهول والأودية،ويستمر فى بحثة عنها فى كل القلوب ويستقصى فى بحثه عنها أكبر المخلوقات وأصغرها أو أهونها فى نظر البعض ولا يترك حتى الغاب وما فيه ، ولنقرأ له قوله :

وقال ظمئت إلى غاية وجبت لها السهل والأودية
وفتشت عنها طوال الزمان وكل المدائن والبارية
ونقبت عنها بكل القلوب ولم تترك النمل أو هاميه
وفى الغاب عدت بقلب جريح فيا لوعتى قسوة ضارية

وينقب ! ويطول البحث ويحرقه الظمأ ، وفجأة يهتدى إلى ضالته المنشودة ، فينادى والفرحة تغمره والسعادة تظلله ، تقرأ ذلك فى قوله :

وبعد قليل تنادى الحنان وفى صوته نشوة عاليه
وقال رشدت إلى موطنى سأقطنه كل أياميه
فؤاد يجدد ما جددت له الأم فى صورة زاهيه

وما أجمل قوله فى الختام :

حنانك يا أمى لا يفتدى وكيف وفيه سنا ربيه

---

(١) الآية ٣٠ من سورة المائدة .

ومع ما فى هذه القصيدة من صور بديعة فدقة التعبير فى القصيدة تكشف عما فيها من :

* طريقة الحوار التى تضفى على القصيدة جوا تشيع فيه الحيوية ، وهذه الطويقة تشكل ظاهرة فى شعر الشاعر أحمد درويش ، وتتراءى عبارات الحوار فى كلمات تكاد تجتمع فى « تساءلت ، فقال . فقلت » تنادى .

* مقدرة الشاعر على التعبير عن الفكر فى سهولة بألفاظ لها القدرة على العطاء والإيحاء،ومن ذلك تعبيره عن مقدرة الحنان على تطبيب النفوس ونشر ظلال السعادة على الكون ، كما أنه أساس فى الطب النفسى ، نلمح ذلك فى قوله :

عهدتك طبا لكل النفوس تفوق لدينا أبا الأدوية

وفى قوله على لسان الحنان لما سأله أن يسكن قلب زوجه ، فى هذا السؤال يتراءى لنا ما يوحى بالتمرد الذى يخترق قلب الشاعر بسبب نظرته الاستقرائية فى حياة الزوجية وما يعتريها من كدر يقطع عرى الوداد ، وفى قوله :

وهرولت يا صاحبى مسرعاً ... ...

نقرأ إيحاءات الهرولة وما تحتها من ضياع الاستقرار وقسوة القلق والاضطراب ، ولعل من أسباب ذلك ما صنعته النظرة إلى المادية ، وتغير المعايير فى نظر الكثرة ، ويأتى الشطر الثانى مؤكدا لما فى القلق وما يتعلق به .

... ... كئيبا غريبا على الرابيه

ويظهر إيمان الشاعر العميق بأهمية القيم التى تربى فى أحضانها ، وبين

عموديها ، وها هو ذا يعترف بها، ونقرأ هذه المعانى فى كثير من أبيات القصيدة ، ومن ذلك قوله :

على زوجة شاركته الحياة وقضت لياليها عانيـــه

وفى قوله :

فقلت تخير فؤاد أخ يحن على إخوة مثليه

وإليك عبارة « فلملمت حالى » التى توحى بالغربة وضياع الأمن والطمأنينه ، ويقرر الشاعر أن الأم هى مأوى الحنان بيد أنها لم تكن كسابقتها فى سالف الزمان ، يقول :

سأسكنه رغم عنف الزمان ورغم أعاصيره العاتيـــة

ففى البيت إشارة إلى العلاقات الأسرية المفككة ، والشلل الذى منيت به أسر كثيرة فى عصر يغزو فيه المرء الكون كله ، وهذه تجربة من تجارب الشاعر أحمد درويش الذاتية ، فقد تلقى تعليمه فى وقت يندر فيه أولو المروءات .

وتتنوع التجربة الشعرية عند الشاعر أحمد درويش ، وتظهر خلالها مدى مقدرته القوية فى امتلاكه لناصية فنه ، كما تظهر براعته فى معالجتها ، فهو أحياناً يجمع أشتاتاً أساسية من الخيوط التى تكون تجربته وتتعلق بها وتظهرها جلية كما تزيدها ثراء وتصبح فى صورة قد يظن قارئها أن الشاعر يتكلم عن واحد من هذه الخيوط أو أكثر ، ولكن سرعان ماتقود القارىء إلى مايريده الشاعر ليرى اللوحة واضحة ، وبتعبير آخر يتحدث الشاعر فى كثير من تجاربه عن النتائج المتعلقة بموضوع التجربة ، ثم ينتقل من ذلك إلى مركز الانطلاق الرئيسى ، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل نراه يدخل على موضوع تجربته دخولا لطيفاً يأسر القارىء ، وتجدك أكثر أسراً بدخولك القصيدة واقترابك من مركز التجربة والوقوف

بجلاء على فكرها وموضوعها ، وهذا ما نلاحظه عنده كثيراً حتى فى تقديمه لبعض القصائد ، وهذه القصيدة التى أنا بصدد الحديث عنها الآن يقدم لها الشاعر بقوله :

« هناك وسط الغياهب والظلمات المستبدة بالشعوب الآثمة الطاغية وسط الحنين المتواصل والشوق العارم واللهفة الظمآنة لبزوغ فجر مشرق بسام ولد الفجر المقدس »(١) .

ويجلس الشاعر وحيداً على شاطىء الزمن ثم يرسل من فكره رسولا ليعبر الليالى ويقرأ فيها سفر ضحايا الأمم ، وبين الأسى والألم يتهامس القلب والدمع ويعزفان استنكاراً ودمعاً سخيناً وحزناً على قاطنى البشر التى ظلت ضحايا للظلام وسبايا الحجر ، يسجدون للظلمات ويركعون للشرور ، ويضربون بمجدافهم فى ليل بهيم يقودهم الاستبداد إلى مهابط الجهل ، فتهوى هى الأخرى لتتخبط فى مهاوى العدم ، يقول فى مطلعها :

وحيداً جلست بشط الزمن ... أقلب سفر ضحايا الأمم
وأرسل بالفكر عبر الليالى ... فيلتاب فكرى الأسى والألم
وأسأل قلبى ودمعى يجيب ... أهلا رأيت قطيع البشر
يعبش كدود حوته الصخور ... ضحايا ضلال أسارى حجر

. . .

يهيم على وجهه حائراً ... ويضرب مجدافه فى الظلم
فمن مهمه حائراً مستبداً ... إلى مثله ساجداً للصنم
إلى مهبط الجهل يروى به ... ويستأنف السير فى مدلهم

ويقف الشاعر طويلا مع هذه الفعلة النكراء ، والمتمثلة فى وأد

---

(١) القصيدة بمقدمتها عندى بخط صاحبها .

البنات ، ولكن الشاعر لا يسردها سرداً ولا يحكيها حكاية كتب التاريخ ، ولكنه يقدمها القارىء فى صورة ممتعة تلذ لعشاق الشعر وقرائه ، إنه يقدمها فى صورة حوار بلسان الوئيدة تلقيه على أبيها فى صور استفهامات ينساب منها الاستنكار ، وتتقاطر منها الحسرة والألم ، يقول :

فهذى عروس كغصن نضير تساق إلى الموت وسط النهار
تنادى أباها : أبى هل جنيت لأدفن فى الترب بين القفار

وكان عليه أن يكون بالفطرة رحيما ، أو بالغريزة — على الأقل — كالحيوانات الوحشية التى تعطف بغريزتها على صغارها ، ومن أجل هذا تخاطبه الفتاة قائلة :

أبى أين قلبك أين حجك أمازلت تهفو لغى الفلاه
أتتبع دين الهوى والتجنى ومن ذا يدين بدين الطغاه

وعلى لسان الموؤودة يصور الشاعر رد القسوة كلها والطغيان والشرعة العمياء ، رد الأب العاتى :

فيصرخ فيها أبوها العتى وفى صوته رنة قاسية
أبوك يدين بدين الجدود ودين جدودك فى عافيه

فبئس ذلك الدين وبئست هذه السنة ، ويالها من شريعة عمياء ، تقرأ على لسان ماكان يدعى فى سالف الزمان بالأب : تقرأ قوله :

ووأد البنات هنايا بنتى تحتمه سنة البادية
وكيف التحول عن شرعتى وشرعى عمى وأجدادیه
دعينى أوارى عليك التراب وأرجع والنفس لى راضية

ويحدث كل ذلك من الأب دون معاناة منه حتى لأدنى درجات

الإحساس بالذنب ، ولكنه فخور كل الفخر معتز كل الاعتزاز ، ويردد ألحان النصر ويطلب من ذويه ترديدها معه :

ويرجع والفخر ملء الرداء يردد ألحانه المخزيه
وأدت ابنتى يا بن عمى فجلجل بنصر ابن عمك فى الرابيه

ويتابع فكر الشاعر عبر الليالى ليتم له عرض صور من سفر ضحايا الألم ، ويخبره السفر فى هذه المرة بضحايا الحروب التى أججتها ظلمات الجهل ، يقول :

ويشعل حرباً تهز الدنا وحجته أنه من قبيله
يراها تخلف سهد الثكالى ودمع اليتامى فيشفى غليله

وينطلق من هذه الصفحة ليقرأ صفحة أخرى من ضحايا الموبقات الأخرى ، إنها الخمر والميسر والرذيلة التى لا تخلف غير أطفال بؤساء .

ودنيا تموج بفحش الضلال وكأس تعج بخمر الرذيلة
وطفل يصيح ... ! أريد الحنان فأين أبى : أين أين سبيله
وأم يمزق أحشاءها حنين ابنها فترد ذليله
أبوك بنى قريب قريب أمامى ولكن فقدت دليله

وها هى ذى الشرور والمفاسد التى يأنف المسلم من ذكرها ترددها المرأة فى الجاهلية مستنكرة ما يحدث والأمى يتقاطر منها ، وهذا دليل على أن المرء لو ترك لفطرته لاختار الإسلام ، واقرأ معى قولها تقول :

أهذا ؟ أذاك ؟ لقد حار لبى فإنى بنى لكل قتيله
فلا تلحنى يا بنى فإنى ضننت ومالى فى ذاك حيلة

ويأتى دور الإرادة الإلاهية ، ويقترب الأمر من ميقاته الزمنى فينتصر الحق فى النهاية .

ويبدو نور الفجر الذى مزق ليل الأسى ، ويتدفق نبع الهدى فينصف المظلومين ، ويرشد الحائرين . ويحمى حمى العفة ، ويتردى الأشقياء فى فى هاوية الجحيم ، ولنأخذ فى قراءة النتيجة المترقبة التى تظهر مقدرة الشاعر الفنية فهو يدخلها عليك دخول الماء السلسبيل قلب الظمآن أجهده طلب الإرتواء ، يقول :

ومن بين ليل الأسى والضلال إذا هم بفجر الأمان بدا
ومن قلب صخر وقلب جبال تدفق سلسال نبـــع الهدى

. . .

من الغيب جاء يرد الطغاه
ويروى الظماء ويهدى الحيـــارى
ويرفـــع للقمم العاليـــات
ضحايا الحضيض وينجى العذارى

. . .

ينادى من الغيب إنى هنا فحدق بقلبك عبر السماء
أظل عليك خلال الليالى فيفزعنى موكب الأشقياء

ويتجلى لك عزيزى القارى. أن الشاعر يتنفس الصعداء حمداً وشكراً على هذا التخلص من التخبط والتردى فى مهاوى البلاء والاصطلاء بنيران الفحشاء والفساد إذ نراه يكرر ذكر هذه المفاسد فى بيت بعد ذكره لها فى تسعة عشر بيتاً ، وكأن كابوساً قد جثم على صدره فلما جاء الهدى

وتفجر النور انزاح ما كان قد جثم عليه من ثقل الهم فراح يترك نفسه لشهيق فتق طويل ليزيح عنه سحب الهم وليخفف آثار لوعة الماضى ويدخل فى بداية عهد جديد ، يقول :

ضلال وبغى وحان وكاس وحرب تجر ذيول الفناء

ثم يستأنف ذاكراً ما هو مأمول ومرتقب ببزوغ هذا الفجر الجديد الذى به قد خفقت رايات الرحمة على الكون وامتد على الإنسانية ثوب السلام ، واهتز لهذا المولد العظيم ما لم يهتز من قبل . بل كان ذلك إيذاناً بتصدع أركان الظلم وتهدم الجبروت ، يقول :

سأبسط ثوب السلام عليك وأنشر فى الكون حلو الضياء
ويرنو الحيارى لداعى السماء فيلقون فجر الهدى يولد
تواكبه رحمات الإله ويسطع من بينه أحمد
فتسرى بهم رعشة المطمئن لفجر الضياء لفجر الغد
وإيوان كسرى على ما به يصدع من روعة المولد

وفى ثنايا الأفكار تظهر بوضوح الروح العلمية ؛ حيث يهتم الشاعر بذكر النتائج وخاصة فى مثل هذه التجارب التى تهم البشرية كلها لأن فى نجاحها تخليص للبشرية من براثن الهلاك وتأخذ بيدها إلى مرافىء القوة وتضعها فى الصف الأولى وفى مقدمة المواكب المستنيرة بالاسلام المستظلة برحمات الإله ، ويحضرنى فى هذا الموقف الجامع للضدين اللذين هما الشرك وما فيه والنور وما يحويه يحضرنى قول الشاعر :

ضدان لما استحسنا اجتمعا والضد يظهر حسنه الضد

وبهذه الصوره استطاع بما يمتلك من مقدرة فنية وثروة تعبيرية أن يواكب الامتداد الشعورى بثوب تعبيرى ملائم يجمع بين القوه والسولة

والإيحاء ، والإمتاع ؛ فالقاموس الشعرى فى هذه القصيدة يضم كثيرا من التعبيرات ذوات الدلالة الإجتماعية التى هى أساس فى تجربته من « وأد ، وظلم ، وحرب ، وقتل ، وفخر ، وحان ، وكاس ، وانظر على سبيل المثال لا الحصر كيف صور الشاعر البشر - وهم يهيمون فى الظلمات قبل انبلاج النور - بالقطيع مرة وبدود حوته الصخور مرة أخرى و« أسارى حجر » مرة ثالثة ، كما يصور القطيع تائها فى مهاوى الهلكة بقوله :

ويضرب مجدافه فى الظلم

ثم تصويره للأب العائد فى عودته بعد وأد إبنته بهذه الصورة النفسية حيث يقول وهو عائد من عاره « والنفس لى راضيه » وهذه الصور تعكس الجانب الاجتماعى ، ولنعد سويا إلى بعض العبارات والألفاظ لنقف على بعض من إيحاءاتها ومكانها فى التجربة ، فعبارة « كدود حوته الصخور » تعكس المهانة والذلة والاستعباد وضياع القدر والهمجية ، وكلمة « دود » توحى بالضياع والاحتقار إلى غير ذلك مما يقرؤه المتأمل فى جوانب اللفظ فلفظة « أبى » كلمة لها مدلولها الواضح إلا أنها هنا توحى بالحنان والعطف والحماية والرأفة والصلة القوية ، وكلها تتنافى مطلقا مع ما يقوم به الأب من وأد وغيره ، وكلمة «أدفن» تعكس غاية القسوة والجفاء وموت الجانب الإنسانى وفقدان الضمير ، وكلما زدت تأملا فى هذه الألفاظ زدت جنيا ووقوفا على إيحاءات أخرى ، وأما لفظة « دعينى » فنقرأ فيها الصراع النفسى الذى يجتاح قلب هذا الجحود ، كما نحس بمبلغ ما وصل إليه من الجهل والغلظة والسفه فى التعبير بكلمة « فجل » .

وفى القصيدة بعض من العبارت التى لها إيحاءات إيمانية ، فعبارة « أطل عليك » فى قوله :

أطل عليك خلال الليالى . . . . . .

توحى بانكشاف المخلوقات لله تعالى انكشافا كاملا ، كما توحى

بالقدرة الخارقة والارادة العظيمة والهيمنة الكاملة والتدبير المحكم، فكل شيء عنده بمقدار .

وأما الشطر الثانى فى البيت السابق .

. . . . . وأنشد فى الكون حلو الضياء

فيوحى فيما يوحى به بعموم الرسالة وانسانيتها وأن فى اتباعها تحقيقا لحياة حلوة هانئة ، كما تقرأ جمال الاعتدال الذى هو مطلوب فى كل شيء .

ومما يلاحظ تنوع القافية فى هذه القصيدة ويكثر هذا فى شعر الشاعر مما يجعل هذا التنوع يمثل ظاهرة واضحة فى شعره ، ولعل السبب فى ذلك هو دفع الرتابة وسيراً وراء ما جادت به القريحة .

. . .

وللشاعر تجربة شعرية أخرى فى نفس الموضوع السابق بعنوان « يانور » ولكنها على امتداد أشمل وفى ثوب ممتد إذ يبلغ عدد أبياتها واحداً وستين بيتا من بحر الكامل ، وحيث لا يتسع المقام — فى تصورى — للتحدث عن قصيدتين فى تجربة واحدة ياسهاب أسوق إليك بعض أبياتها لترى مبلغ اتضاح الرؤيا عند الشاعر وقدرته على امتلاكه لمكونات فنه الشعرى . يقول فيها :

يانور ماذا قد يقول لسانى
وضياك فتان السنا ربانى

يا نور ياسر الوجود وسحره
والمكمن الأسمى عن العرفان

يا نور يا من قد هدى بشعاعه
ركب الحياه وموكب الأزمان

يا نور إنى فى حماك لعاجز
عن وصف سر جلالك الروحانى
أنا قد عجزت وليس عيباً أن يرى
عجزى أمام مجسم نورانى
وأنا الضعيف فكل أمرى أننى من طينة فى صورة الإنسان
ومكانى الأرض التى أحيا بها ومكانك الأسمى رفيع الشان
قل لى وكيف ؟ وكيف أرقى للعلا
وأطوف حول منابع الرحمن
هيهات أن أرقى لمنبع نوره شتان بين مكانه ومكانى

ثم يذكر ما كان قبل ميلاد النور من جهل واستبداد وظلم فيقول :

وبريئه لما تزل تحت الثرى مزهولة مما جرى وتعانى
ماذا بها ؟ وهى التى لما تزل طفلية الأحلام والتبيان
راحت ضحية من تبدى قلبه أقسى من الجلمود والصوان

وبعد ذكره أنماطا من البغى والطغيان والفساد يشفع ذلك بذكر لهفة الكون وظمئه وتطلعه الشديد إلى الخلاص . يقول :

والكون أمسى فى حنين دائم تبدو عليه دلائل اللهفان

ثم يعلن عن عجزه البين عن مدح خير الأمة محمد ﷺ ، فشعره لا يؤدى جانبا من وصف عظمة الرسول عليه السلام ، غير أن شعره يشرف بذكر الرسول ﷺ ، ومن ذلك قوله :

فلو أن شعرى من جمان ناصع أو من يتيم الدر والعقيان
أو من نجوم زاخرات تزدهى سحرية الأضواء واللمعان
أو أننى كنت الفصاحة والنهى والقمة العلياء فى التبيان

ما كان شعرى بالمؤدى جانباً يا بن العلا يامهم الفنان

وهذه القصيدة تذكرنى بقصيدة الشاعر « هاشم الرفاعى » التى عنوانها « رسالة فى ليلة التنفيذ »(١) وهى التى يقول فيها :

أبتاه ماذا قد يحظ بنانى والحبل والجلاد منتظران !

هذا الكتاب إليك من زنزانة

مقرورة صخرية الجدران

لم تبق إلا ليلة أحيا بها وأحس أن ظلامها أكفانى

ولا شك أن الشاعر قد قرأها وعايشها فهى صورة للظلم الغاشم آنئذ ولا ريب أن الشاعر عايش هذه الفترة وما فيها من جهل وظلم واستبداد فكان من المعجبين بالمرحوم هاشم الرفاعى وبتصويره وبفكره ، ولعل هذا الإعجاب هو الذى ساقه إلى معارضتها وزنا .

. . .

وننتقل إلى تجربة ثالثة نقرأ فيها هذه المرة ذات الشاعر ونعيش مع أدب الاعترفات الذاتية التى تعكس معاناته وبعض ما تكبده من آلام وأحزان وما تحمله من هموم حين كان يتلقى العلم فى معهد الاسكندرية الدينى الثانوى عام ١٩٥٤ م فقد كان الشاعر حينئذ يمثل الطائفة التى كانت تعيش بشق الأنفس ، لأنه كان من الطبقات الكادحة ، ولم يكن يرضيه أن يجمع مالا تتقاطر يسببه الكرامة أو يتصدع به بنيان الوطنية عنده ، وإنما عاش يعمل ويعانى الآلام تعبث به موجات القسوة وتسلمه كل موجه لغيرها ، ولا يجدله متنفساً غير الكلمة الصادقة ، وهذه التجربة لا تكشف عن ذات الشاعر فقط ولكنها تعبر أيضا عن حياة الكثرة

---

(١) ديوان هاشم الزماعى ٢٤٣ تحقيق : محمد كامل حته

من الشعب الكادح الذى عاش حياة البؤس والحرمان والألم ومتنفسه الدمع السخين .

وتبدأ نسج خيوط القصيدة فى نفس الشاعر منذ بدأت الآلام تسكن جوانحه ، لكنها تفجرت على إثر حادثة عادية ـ آنئذ ـ ولكن ظروف الشاعر والعوامل التى أحاطت به جعلت هذه الحادثة كلمة الوقع على النفس

وملخص هذه الحادثة ـ أن الشاعر وهو طالب فى معهد الاسكندرية كما سبق أن ذكرت ، كان يعطى درساً فى اللغة العربية لابن أحد أثرياء ذلك العهد ، وقد اعتاد الرجل أن يعطى المدرس مبلغ جنيهين مقدماً ، وكان وقع هـــذا المبلغ عند الشاعر عظيما ، فقد كانت له قيمة شرائية كبيرة مما جعله يبخر كثيراً من الآم الحاجة كل شهر ، وقد تعود شاعرنا وضع ذلك فى حسبانه أول كل شهر ، ولكنه يذهب هذه المرة وكما تعود كان قد رتب أمره وأدخل فى حسابه هذا المبلغ ، ويجلس الشاعر مع تلميذه وعيناه تسترق النظرة نحو حركة تكون إيذانا بالدفع ويشرح له درسه ويمر الوقت سريعا ويرتقب المدرس أجره ، ولكن الأمر كان على عكس ماجرت به العادة ، إذ بات ينحت ذاته وتمر اللحظة تلو الأخرى وكأن كل لحظة آلة نسج سريعة تنسج أكفان الأمل الذى عشعش بين جوانب الشاعر وقت ذهابه ، وتقطع خيوط الرجاء ويحتضر الأمل وتتبخر أمنية الشاعر لتحل محلها الحسرة والبؤس وهكذا تزدرد حيتان الكدر آماله عندما تيقن أن والد الطالب الذى كان يدين بالمسيحيه ينادم صحبته وقد لعبت بهم الخمر فأفقدتهم مسحة الأدمية فخرج الشاعر وكله ألم وحسرة ، أناس يحصلون على مايقيمون به أودهم ويحفظون به حيـــاتهم بشق الأنفس وآخرون يضربون فى النعماء تلازمهم التخمة وتتجمع الآلام والأحزان والهموم التى نسجتها وصنعتها عاديات الزمن لتخرجها هذه الواقعة فى صورة كاملة تحت عنوان « دموع شاعر » .

واسمح لى عزيزى القارىء إذا قرأت معى تقديمه للقصيدة إذ يقول :

« هذه قصيدة بائسة سطرتها وأنا بائس فى ليلة من ليالى شقائى وحرمانى وكان مدادها دمعى السخين ممزوجا بدم القلب الجريح الذى كان يسيل منه فى تلك الليلة من فرط حرقته وأليم عذابه »

وينطلق الشاعر فى بدء قصيدته بهذا الأسلوب الأنشائى الذى يعلن عن الألم ويسفر عن الحسرة ولا يملك معه المرء إلا أن يقف متعاطفا مع هذا الحائر البائس الذى عاداه الدهر فظل يصطلى بنار الشقاء ولا تتجاوب معه مخففة آلامه إلا دموعه الصادقة ، وتحت كل دمعة سر دفين يضم آلاماً وأحزانا وبؤساً وشقاء ليس على نفسه فقط ولكن على هؤلاء الذين انتظموا فى سلك الحيرة وكبلوا بالشقاء القاتل الذى انعكس على الشاعر فأصبح يرى **كل** شيء قاتماً ...

بهذا الأسلوب يفتتح الشاعر هذه السحب المحرقة ، وينظم إقاموس الحيرة والسهد والاصطلاء بنار الشقاء بقوله :

سلوا عبرتى فهى مثوى الخبر
ودمعى صدوق إذا ماانهمر

سلوها تجبكم عن المصطلى
بنار الشقاء ومضى الفكر

وذاتية الشاعر أحمد درويش لاتعنى الفردية الضيقة وإنما هى معيار للحقيقة يستطيع صاحب البصر أن يقرأ من خلالها حياة الآخرين

ولهذا :

ستنبيك أن وراء الدموع نفوساً حيارى بجور القدر

فالنفوس محجوبة وراء هذه الدموع ، ويعيش غريق هذه الحجب المظلمة ، ويطلق الشاعر فكره وراء بصره الثاقب ليلتقط صوراً لكثيرة ممن يعيشون فى هذه البؤرة العمياء التى لم يسمح القدر لأحد من هؤلاء المساكين بالخروج من إطارها وهؤلاء الذين يعيشون على هامش الحياة ، هذا الذى أقلقه حتى أخرجه الألم عن طوعه فراح يصف القدر بالجور ، والدهر بالفجور مما يتحفظ الشاعر منه الآن ولنسمعه يصف هذه الحياة فى قوله:

وأن حياتى سهاد مقيم　　وبؤس ممض ودهر فجر
فإن عبر الدمع عن لوعتى
فصدق فما　　الدمع إلا أثر

وينتقل من هذا الوصف العام إلى حكاية قصته السابقة التى فجرت هذا السيل من الآلام ، وفى ثنايا الأبيات تهب عليه الأفكار الفلسفية التى تراود نفوس الكثير من البشر من رياح الفناء والضياع ، وكثير مما يؤلم النفس الإنسانية ، يقول :

ففى ليلة من ليالى دموعى　　تناهت لديها معانى الخطر
تحيط بها عاديات الليالى　　وتزخر فيها بحور الكدر
وقد حوت البؤس فى جعبتها　　وبين دجاها الرهيب استعر
وسوط العذاب يغنى بها　　نشيد الفناء الأليم الأثر
ويرقص دهر بها ساخراً　　كما يسخر الفارس المنتصر
زويت . .　　...　　...
...　　...　　...

وهكذا تطول الجملة بمتعلقاتها كثيراً عند الشاعر حتى تصل إلى هذا الحجم ، وهذا الطول يعنى عند الشاعر عمق التجربة وقوة الشحنة وماتحمله من امتداد الهم والحزن الذى ناسبه إمتداد الثوب التعبيرى لافراغ مافى

النفس من شحنة العذاب وإعلانا للحسرة التى منى بها إذ نراه يرى صور الكدر والبؤس والعذاب والفناء والألم وسخرية الدهر ، وهذه الصور تؤرخ لقطاع زمنى عاش فيه عامة الشعب فى بؤس وألم ، فالشاعر يترجم المشاهد اليومية وينقلها إلى مجال الفن ، ولا يستطيع القيام بذلك إلا من أوتى موهبة أدبية رفيعة .

وها هو ذا ينتقل إلى الطبيعة ليرى فيها مسلاة له وريا من هذا الظمأ ، وليتجاوب معها ، ولكنه يقف حزيناً أمام زهرة يرى فيها صورة نفسه ، كما يخلع من إحساسه عليها فى صور بعيدة عن المباشرة ، هذه الزهرة التى تعانى الهموم والآلام والذبول ، تلك الزهرة التى أصبحت هدفا لسهام الزمن النافذة ، وبروح الفردية الراقية ينصهر الشاعر فى بوتقة الجماعة ، ويعيش مع هذه الزهرة التى حفتها المهلكات فيتخذ منها رمزاً له ولكل من هو على شاكلته ممن ذبلت حياتهم دون أن يشموا رائحة النعيم كما روى الشاعر .

... كما رويت زهرة على وجنتيها رواء الصغر
رماها الزمان ولما تذق لطيف النسيم ونجوى القمر
ولم ترتشف من رحيق الندى ولم ترتو من شفاه الغدر

وتشاركه الزهرة الشقاء ، فلم تر طعما للذة ، ويربطها بالشاعر هذا الخط الحسى الدقيق ، فقد هبت عليها رياح الفناء .

ولم تر فجرا بهى السنا يداعب فجر صباها النضير
رماها الزمان بقلب الدجى وفى مكمن مستبد وعر
تسائل فى حسرة نفسها ألا ليت دهرى ماذا الخبر

ويفيض الاستنكار من الشاعر فيحمله للزهرة التى تستفهم مستنكرة فى قولها .

أيزوى شبابى الطرى الإهاب بدون أوان ولم استشر

وتطل علينا فى هذه القصيدة روح التأثر بالخيام فى رباعيته فى قوله (١) :

لبست ثوب العيش لم استشر وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضوا الثوب عنى ولم أدرك لماذا جئت أين المفر ؟

وتذكرنى زهرة الشاعر بزهرة إيليا أبو ماضى ، غير أن زهرة الشاعر تتعذب وتلفظ أنفاسها مرة واحدة ، أما زهرة « أبو ماضى » فقد جثمت عليها تيارات الشلل لما :

... ... جناها ولوع بالزهور لعوب(٢)
رآها يحل الفجر عقد جفونها ويلقى عليها تبره فيذوب

فالزمان لم يرمها بالفناء ولم يرقص الدهر بها ساخراً ، ولكنها تمعت بلطيف النسيم ونجوى القمر ، وارتوت من الغدران ، إلا أن مصيبتها هذه المرة كانت على يد ظالم وجهته الأنانية الحمقاء وقادة الجهل فصنع بها ما صنع ولهذا .

ثوت بين جدران كقلب مضيمها تلتمس فيها منفذا فتخيب

ويعكس الشاعر سخطه على هذا المصير الذى يظهر فى قول الزهرة التى شخصها الشاعر حين تقول :

فيا ليتنى لم أكن زهرة إذا كان هذا مصير الزهر

---

(١) رباعيات الخيام ترجمة أحمد رامى ط ٤ مطبعة غريب

(٢) الجداول ١٦، ١٧ ط ٢ — ١٩٦٠ م

ونلاحظ فى القصيدة بعض السمات الأسلوبية التى تشكل عنده ظاهره واضحة ومنها :

استخدام بدء واحد لأكثر من بيت ، ويظهر ذلك كثيرا فى شعره ، ومن الأمثلة على ذلك من هذه القصيدة «رماها الزمان » و « رماها الزمان» ولعل هذه الظاهرة تدل على كثافة التجربة وقوة التدفق والاستقصاء والعمق ، ومحاولة التنفيس عما فى النفس بقدر يتناسب مع كثرة الهموم وطولها وشدة وقع الآلام . . !

كما يكثر عنده الاستفهام الذى يعلن فيه الشاعن عن التحسر على ما بعد الاستفهام كما ينبى عن شدة اللهفة للخلاص من هذه القلاقل والاضطرابات

اختيار الشاعر للكلمات التى توحى إيحاء قويا وتتناسب مع قوة التجربة ، وانظر معى قوله :

وأن حياتى سهاد مقيم وبؤس ممض ودهر فجر

فكل لفظة فى الشطر الثانى من البيت السابق تمثل طاقة قوية تناسب وقع الألم على النفس ويظهر هذا بوضوح فى جل الأبيات .

ورغم هذه الآلام فالشاعر يمتلك من القوة ما يمكنه من السير فى مهب الآلام مخترقا سحب الأحزان توجهه إرادته وعزيمته هاتان اللتان يجدف بهما فى معمان الخطر بين رياح الهموم وموج الردى ، يقول :

وفى بحر دمعى سرى زورقى يجدف فى معمان الخطـــر
تهب عليه رياح الهمـــوم وموج الردى صاخب مستعر

ويفضى الشاعر بما يقلق الفكر ويراود الكثير من البؤساء الذين يعانون ما يعانى ، فهذا الشقاء والبؤس وكل جيوش الهم لا أمل له فى الخلاص منها ، ولكن الرجاء دائما يداعب حتى الإنسان الذى يظن أن

الحياة سوف لا تحلو له أيضا، حتى إذا أدلهم الأمر أدخله ذلك فى متاهات الاستفهام التى لا تفسر إلا عن الحيرة والألم والقلق حتى يصير غنياً فى الشقاء، ويقول :

وحار فلم يدر أين المصـــير ولم يدر أين سينهى السفـــر
وملاحه عبقـــرى الشقاء نديم الأسى نابغى السهـــر
طوته الليالى بأهوالها وأودع فى قلبها المكفهر

يحيط به العذاب من كل جانب ومن كل لون يقول :

وبين يدى كئوس العذاب وتلهب ظهرى سياط القدر

وبعد كل هذا فقد جرح الأسى قلبه فاستقر الجرح فى فؤاده ولم يعد يسمح لخيالات الأمانى بمزاحمته، فحين تراود الأمانى نفسها فى الدخول إلى قلبه لتنسج لها مكانا يغلى جرحه ويشتد فيجرع الشاعر كئوسا من العذاب، يقول :

وجرح بقلبى أليم أليم وإن هدهدته الأمانى نغر

ويضرب الألم قيوده حول الشاعر فلا يستطيع الانفكاك عما يصنع فيه، يقول :

وإن أن جسمى من لوعة يبدل سوطاً شنيع الضرر
وإن هبت الروح تشكو الضنى أعلت بيأس فلم تقتدر
وإن رحت للدهر أشكو له يجرعنى الدهر كأسا أمر
ويوصد دونى أبوابه ويتركنى فى مهب الفكر

وعلى الرغم من ذلك كله يمشى الشاعر حاملا قيثارته التى يضرب على أوتارها أنغاماً حزينة يزينها بلحن الشقاء لنقرأ فيها شخصية الشاعر، يقول :

وحين أرى اليأس فى خاطر ... وفى ناظرى مرتع مستقر
أسير بليلى ليل الحيارى ... وليل الحيارى طويل عكر
أغنى ولكن بمغنى حزين ... فلحنى شقاء وبؤس ومر
وأوى إلى سلوتى وهى شعرى ... وشعرى صديق وفى أبر
وشعـــرى كئيب له لوعة ... تذيب القلوب إذا ماذكر
فما هـــو شعر ولكنه ... دموع الحيارى تشق الحجر

وفى هذه القصيدة نرى الشاعر

— ينطلق إلى الطبيعة يتجاوب معها ، فهى مسلاته وفيها ما يزيل قره وحره ... كما يستعير ما يتصل منها بتجربته ويعكس ذاته ، فهو يأخذ منها — مثلا — الدجى ، الزهرة ، النسيم ، القمر ، الرحيق ، النـــدى ، الغدير ، السنا ، الفجر ، الرياح ، المرج ، الليالى ولا شك أن لنشأة الشاعر بالريف أثر فى ذلك .

يخدم الشاعر الألفاظ والعبارات فى رسم الصور التى تعد أساسية فى بيان التجربة النفسية ، استخداما جيدا ، ومن ذلك على سبيل المثال هذه الأسطر :

« ليلة حوت البؤس فى جعبتيها » .

« يرقص دهر بها ساخراً .

« ذويت كما ذوت زهرة » .

وتذق لطيف النسيم » .

ومن الكلمات أيضاً ، نجوى القمر ، و « نديم الأسى » و « سياط القدر » وعبارة « وإن هدهدته الأمانى نغر »

— استخدام الشاعر فى ألفاظه قاموساً من الأحزان جمع فيه هذه

الكلمات والشقاء والحيرة ، والدموع ، والعذاب ، والألم ، والسهر ، والبؤس ، والقدر الجائر ، والدهر واللوعة ، والعاديات ، والليالى ، والكدر ، والدجى ، والهموم ، والرياح ، والردى ، والحسرة ، والذبول ، والفناء ، . . . . . .

إنها قصيدة ضاربة بسهم وافر فى محيط الأحزان ، ولعل هذا الذى جعل المرحوم الدكتور أحمد الشرباصى يعلق عليها عندما ألقاها الشاعر فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة عام ١٩٦٠م

بقوله « إنها تجمع قاموساً من الأحزان والآلام » هذا التعليق الذى أثار كوامن نفس الشاعر وجعله يرد على المرحوم الدكتور أحمد الشرباصى بقصيدة « فلسفة الحرمان » التى يقرر فيها : أنه لا يعشق الألم لذاته ولا يميل إلى الحزن لذات الحزن ولكن من أجل معرفة قيمة السعادة ولذة التمتع بها إذا حصل عليها وتحققت له ، وأن كل ما يقابله المرء فى حياته من صعاب لا تمر دون فائدة ، فالآلام والأحزان والظلمة وغير ذلك من عقبات تجعله دائماً فى لهفة عارمة لبسمة ضوء تجدد له آماله وتملأ عليه حياته أحلاماً وضاءة .

وإن المعاناة فى سبيل الوصول إلى القمة ستجعلك تدرك فضل ما صادفت من صعاب ، ولو كانت الحياة نعيما متصلا ما شعر الإنسان بطعم الحياة ، ولتبلد إحساسه عند ذلك النعيم ؛ فلولا الليل وظلماته وشعورنا بكآبته وبلادته وأهواله لما أمتعنا نور القمر الساحر الجميل ، ولولا الظلمة أيضاً لما كان للفجر فى نفوسنا ذلك الأثر العميق ، ويظل الشاعر موضحاً فلسفة الحرمان التى يقول فيها(١) :

---

(١) القصيدة ٤٨ بيتا من بر المتقارب وهى مخطوطه لدى

أحسن أخى روعة للنغم اذا ما تدثر ثوب الألم
ويسبى فؤادى ترداده ويسمو بروحى فوق القمم
ولم يسبنى فى ثياب النعيم كأنى لديه بليـــد أصم
.. فلا تحسبن الحياة جحيما اذا خضت أشواكها والسقم
تأمل هناك ... تراك شغوفا لدفقة نور خلال الظلم
واو أن ليلك كان ضياء لخلت السعادة فى المدلهم
... وأدرك فى الليل سر النبوغ وسر الطموح إلى القمة
... ولولا الليالى وظلماؤها لمـــا كان يسبيك نور القمر